أ.د. فايز محمد الربيع الفلاح
أستاذ الحضارة الإسلامية في جامعة الزرقاء/ الأردن

الملف

القيم الحضارية من خلال حجة الوداع

أطلق على هذه الحجة حجة الوداع وحجة الإسلام وحجة البلاغ فمن أطلق عليها حجة الوداع ذكر أنّ سبب ذلك لأن الرسول(ص) ودّع الناس فيها وقال: [إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا] ومن سّماها حجة البلاغ استند الى قوله بعد كل فقرة: (هل بلغت) ومن سّماها حجة الإسلام قال: لأنّه حج فيها بأهل الإسلام ولأنه لم يحج من المدينة بعد فرض الحج غيرها، وثمة من أطلق عليها حجة التمام والكمال لأنّه نزل قوله تعالى: [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ

دِينًا][١]. ومهما كانت التسميات فإن تسميتها (حجة الوداع) هي القول الأشهر، ويروى أنه لما نزلت آية الإكمال فقد نزلت بعد عصر يوم الجمعة في عرفات ـ وعاش النبي بعدها واحداً وثمانين يوماً[٢]، وقد تعدى صدى هذه الآية الى أهل الكتاب، جاء رجل من اليهود الى عمر بن الخطاب فقال. يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً قال: أي آية؟ قال: [اليومَ أكملتُ لكم دينكم...] فقال: إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه والمكان الذي نزلت فيه نزلت على رسول الله(ص) بعرفات يوم الجمعة[٣].

وكانت خطبة الوداع يوم الجمعة ٩ من ذي الحجة سنة ١٠هـ أي قبل عشرين يوماً من غرّة المحرّم وهو اليوم الذي وافق بداية العام العبري وهناك من ربط بين الحدثين خطبة الوداع واستدارة الزمان وهو ما عبر عنه الرسول(ص): (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض)؛ وابتداء لابد من تثبيت ما قاله الرسول(ص) في حجة الوداع من كلام نبوي ـ أما خطبة الوداع ـ المشهورة فهي واحدة مما قيل في حجة الوداع...

وانسجاماً أيضاً مع العنوان الذي سأتحدث فيه [وهو القيم الحضارية في حجة الوداع] لابد

Archive of SID
www.SID.ir

من التنويه ـ ولو قليلاً ابتداءً ـ حول موضوع القيم والحضارة.

لقد أرسى الإسلام في عموم توجيهاته مرتكزات أساسية لحضارة الإسلام التي تعاملت مع نفس المكونات (الأرض ـ والإنسان) ولكنها غيرتها بالمنهج ـ فالأرض هي نفسها (واد غير ذي زرع) والإنسان هو نفسه (الإنسان) الذي كان يسجد للحجر والشجر ويظلم ويقتل ويشرب الخمر ويتعامل بالنسيئة ويئد البنات، الى غير ذلك من صفات الجاهلية (ما الذي تغير)؟!

لقد تغيرت منظومة القيم الجديدة بالإسلام، وبحضارته ولعلنا نضع ابتداء ثلاث نقلات أولية لهذا التغيير تشكل عنواناً ومدخلاً.

النقلة الأولى هي النقلة التصورية الاعتقادية وهي بمثابة القاعدة التي انبنت عليها سائر التحولات ولقد كانت هي محور الرسالة وتأكيداتها المستمرة.

إنها الخطوة التي حررت العقل الإنساني والتوجه[٤] الإنساني من التعدد الى التوحيد ومن عبادة العباد الى عبادة الله وحده، ومن عشق الحجارة والأصنام والتماثيل والأوثان الى عشق الحق الذي لا تلمسه الأيدي ولا تراه العيون، وقد أعيد تشكيل الإنسان الجديد على هذه القيم. إن التصور الإسلامي نسيج وحده،

وإن المغزل الإلهي الذي حاكه بإعجاز يصعب تنفيذه على الإنسان ـ هو الذي عرف كيف يصوغ العقل الجديد بعقيدة التوحيد ـ وهذه النقلة هي تأكيد الاستهلالة التي بدأت بها الوصية النبوية (أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله) والتي أشار إليها (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فإن قالوها عصموا دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله)، (ألا إنما هي أربع: أن لا تشركوا بالله شيئاً...).

والنقلة الثانية هي النقلة المعرفية والتي بدأت بكلمة (اقرأ). إنها نداءات القرآن المنبثقة من فعل القراءة والتفكر والتعقل والتفقه والتدبر.

لقد كان القرآن الكريم يتعامل مع خامة لم تكن قد حظيت من المعرفة إلا بالقسط اليسير مع جيل من الناس لم يبعد بعد عن تقاليد الجاهلية وقيمها وطفولتها الفكرية. لكنه استطاع أن يعلمهم بقوة الإيمان الجديد، ويعيد تشكيل عقولهم كي تكون قادرة على استيعاب المضامين الجديدة ولم يكن ذلك ممكناً لولا فتيلة الشوق المعرض للمسلم.

ويقول الرسول(ص) في هذه الوصية: (أيها الناس خذوا العلم من قبل أن يرفع العلم.

Archive of SID
www.SID.ir

ألا وإن ذهاب العلم بذهاب أهله...).

إن اقرأ هنا ليست مطلقة بل مقيدة ـ وعندما تكون القراءة باسم الله ستكون للبشرية هادية ونافعة، ولقد قدّس القرآن المعرفة، وأداتها العلم ووردت كلمة العلم ومشتقاتها أكثر من (٧٥٠) مرة في القرآن الكريم.

أما النقلة الثالثة فهي النقلة المنهجية ـ ونحن نعلم أهمية المنهج في حياة الإنسان الفكرية والحضارية، وأنه بدون منهج لا يمكن أن تكون هناك طريق توصل الى الأهداف مهما بذل من جهد أو عطاء، ولقد اتجهت هذه النقلة في اتجاهات ثلاثة: السببية، والقانونية التاريخية، والمنهج التجريبي.

أما السببية فهي التي نقلت العقل من الرؤية التسطيحية التبسيطية التي كانت تعاين الأشياء كما لو كانت معزولة ولا تستطيع الجمع والمقارنة، ولا تملك التركيب، الى عقلية تركيبية تملك القدرة على الربط بين الحقائق والعلائق والارتباطات وصولاً الى الحقيقة المرتجاة. أما القانونية التاريخية فهي التي أكدت على أن حركة التاريخ لا تسير اعتباطاً إنما هي محكومة بسنن؛ وبالتالي فإن حركة التاريخ تحكم بالسنن لا بالسنين، هناك نواميس

لابد أن تخضع لها حركة الكون إنها تريد أن تقول إن حركة الجماعة البشرية ليست إعتباطية، وأنها بما ركب فيها من قوى العقل والروح والإرادة خلافاً لما هو سائد في العوالم غير البشرية مسؤولة مسؤولية كاملة خلال حركتها تلك، وحين انتفت هذه العلاقة الإيجابية بين الإنسان والله والعالم وأسيء استخدام الحرية وضاعت المسؤولية وانعدم التخطيط المدرك الواعي وتميعت القيم الأخلاقية المنبثقة عن العقل والروح والإرادة آلت البشرية الى التدهور [سُنَّةَ اللَّه في الَّذينَ خَلَوْا من قَبْلُ وَلَن تَجدَ لسُنَّة اللَّه تَبْديلًا] (٥). [سُنَّةَ مَن قَدْ أرْسَلْنَا قَبْلَكَ من رُّسُلنَا وَلاَ تَجدُ لسُنَّتنَا تَحْويلاً](٦).

أما المنهج البحثي الحسي التجريبي: فلقد دعا الإسلام الإنسان الى التبصّر بحقيقة الوجود والارتباط الكوني عن طريق النظر الحسّي ـ وربطه بالعقلي ـ ومن ثم بالإخباري أعطى للحواس مسؤوليتها الكبيرة: [وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ به علْمٌ إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤولاً](٧) [انظُرْ كَيْفَ نُبَيّنُ لَهُمُ الآيَات](٨)، ولقد جاءت كلمة العلم أحيانا لتدل على الدين: [وَلَئن اتَّبَعْتَ أهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذي جَاءكَ منَ الْعلْم مَا لَكَ من

Archive of SID
www.SID.ir

اللّه من وَلِيٍّ وَلاَ نَصيرٍ][٩] إننا أمام مسألة حضارية قيمية تربط بين مسألة الإيمان ومسألة الإبداع، والكشف بين متلقي عن الله عزوجل وبين التوغل قدماً في مسالك الطبيعة وفي بنائها وغوامضها بين تحقيق مستوى روحي عال للإنسان وبين تسخير طاقات العالم لتحقيق الدرجة نفسها من التقدم على المستوى المادي ولم يفصل الإسلام بين هذا وذاك.

لقد سجّل عصر الرسالة تأكيدات متزايدة على جملة من القيم ذات الارتباط الوثيق بالفعل الحضاري من هذه التأكيدات أن المعرفة هي حجر الزاوية، والنزوع الى الأمام، والتحذير من هدر الطاقة ومبدأ الاستخلاف، ومبدأ التسخير، وتنمية روح العمل والإبداع، ومجابهة التخريب والإفساد، والتوازن بين الثنائيات وتوحدها، وهو التوحد الذي انعكس على قيم الروح والمادة عبر مسيرة الحضارة الإسلامية؛ من أجل أن لا نفقد توازننا الحضاري، والتناغم والتوافق مع الطبيعة والعالم والكون، والميزة التحريرية التي يمكن أن نضعها كقانون رياضي، كلما ازدادت عبودية الإنسان لله ازدادت حريته[١٠]، ولقد جاءت هذه التحولات لتؤكد على حقيقة التوحيد في مواجهة الشرك والتعدد، وعلى الوحدة في

مواجهة التجزؤ، وعلى الإصلاح في مواجهة الفساد، وعلى المنهج في مواجهة الفوضى، وعلى المعرفة في مواجهة الجهل، وعلى الإنسان المسلم الملتزم بقيم الإسلام مقابل الإنسان الملتزم بقيم الجاهلية.

هذا الحشد من القيم لا بد أن يرتبط بفعل حضاري، والحضارة كما وردت في لسان العرب[١١]. تأتي بمعنى الشهادة وهي التوحيد والإفراد بالعبودية لله والاعتراف بتفرده، والشهادة بمعنى قول الحق وسلوك العدل وبمعنى الفداء وكوظيفة للأمة.

ولقد اختلف في تعريف كلمة الحضارة ولعلها من الكلمات المستحدثة فابن خلدون مثلا[١٢] يقول: إنها نمط الحياة المستقرة، وحسين مؤنس يقول: (هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين الظروف سواء كانت مادية أو معنوية)[١٣]، وهي أي الحضارة الإسلامية ما وضعه الإسلام من أسس للعقيدة والأخلاق ونظم الحياة الفردية والجماعية وما أنتجته البيئات الاسلامية من أدب وفن وفلسفة وما وصل إليه علماء البيئات الإسلامية من نظريات وما أبدعوه من مخترعات[١٤].

إنها عملية شهود حضاري للإنسان المرتبط بمرجعية هذه الحضارة للقيام بدوره الفاعل

Archive of SID
www.SID.ir

على الأرض في عمارتها استناداً لتوجيه صاحب المنهج ومن نتاجه الإطار المادي والمعنوي لتحقيق شرط الاستخلاف الحضاري.

هذه المقدمة هي إطلالة على المفهوم القيمي الحضاري كي ينسجم بحثنا مع القيم الحضارية في حجة الوداع.

نص الوصية النبوية: (١٥)

وبعد أن قدمنا لهذه الحجة، واستعرضنا مفهوم القيم الحضارية وأركانها في الحضارة الإسلامية والتحولات الكبرى التي أدت إليها، نبدأ بتثبيت نص الوصية النبوية، وأمامنا اتجاهان في البحث: الاتجاه الأول وهو اعتبار كل ما قيل في (حجة الوداع) بلاغاً وإن اختلفت مواقيته ومن ضمنها (خطبة الوداع) والثانية التركيز على نص الخطبة في عرفات فقط ـ ولعلنا نسلك الاتجاه الأول وهو تثبيت نص الوصية.

التفّت الجزيرة العربية حول الرسول(ص) بعرفة وهو الركن الأهم في الحج وخاتم الأركان في هذا الدين ونزل عليه قوله تعالى: [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا](١٦)، واكتملت الأحكام التشريعية، ووقف النبي(ص) يخاطب العرب الذين وقفوا بين يديه كلهم على صعيد واحد بلباس

واحد، يؤدون مناسك واحدة، متجهين الى قبلة، واحدة بعد فرقة وتنازع وتقاطع وتدابر وحروب طاحنة، ليخاطبهم بأبلغ خطبة، ويوجههم بأعظم توجيه، وهو يحملهم الأمانة للأجيال اللاحقة من الإنسانية الى قيام الساعة، وتلقفت القلوب والأفئدة هذه التوجيهات والتعليمات ووعتها سلوكاً وتطبيقاً وبلغتها الى الأجيال.

قال الحافظ بن كثير وكان الصحابة (رض) يذكرون هذه الخطبة ويتحدثون بها ويعلمون عمق توجيهها وشمولية معانيها لأنها الوصية الخالدة مدى الدهر في أعناق المسلمين(١٧).

وهذه هي فقرات الوصية النبوية في حجة الوداع:

١ ـ الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير(١٨).

٢- أيها الناس: اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف

Archive of SID
www.SID.ir

أبداً. يا أيها الناس: خذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد عامي هذا[١٩].

٣- أيها الناس: أيّ يوم هذا؟ أليس يوم النحر؟ قالوا: بلى هذا يوم النحر، وهذا يوم الحج الأكبر (في رواية أليس يوم حرام؟) قالوا: بلى، قال: فأي شهر هذا؟ أليس بذي الحجة؟ (وفي رواية: أليس بشهر حرام؟)

قالوا: بلى قال: فأي بلد هذا؟ أليس البلد الحرام؟ فإنّ دماءكم وأموالكم، وأعراضكم وأبشاركم حرام عليكم الى أن تلقوا ربّكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا.

وحتى دفعة دفعها مسلم مسلماً يريد بها سوءًا، ألا هل بلغت؟ فليبلغ أدناكم أقصاكم، اللهم فاشهد[٢٠].

٤- سأخبركم من المسلم! من سلم الناس من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله تعالى[٢١].

والمؤمن حرام على المؤمن، كحرمة هذا اليوم، لحمه عليه حرام أن يأكله بالغيبة يغتابه، وعرضه عليه حرام أن يخرقه، ووجهه

عليه حرام أن يلطمه، ودمه عليه حرام أن يسفكه، وماله عليه حرام أن يظلمه، وأذاه عليه حرام وهو حرام أن يدفعه دفعاً.

٥- فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها[٢٢].

٦- ألا وإني فرطكم على الحوض ـ أنظركم، وأكاثر بكم الأمم، فلا تسوّدوا وجهي. ألا وقد رأيتموني، وسمعتم؛ وستسألون فمن كذب علي فليتبوأ مقعده من النار.

ألا وإنّي مستنقذ أناساً، ومستنقذ مني أناس، فأقول: يا ربي أصحابي فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك[٢٣].

٧ - لا تألوا على الله، فإنّ من تألى على الله أكذبه الله[٢٤].

٨- ألا إنّ كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدميّ موضوع[٢٥].

٩- وإنّ مآثر الجاهلية موضوعة، غير السدانة والسقاية.

والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مئة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية[٢٦].

١٠- ودماء الجاهلية موضوعة، وإنّ أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل[٢٧].

Archive of SID
www.SID.ir

١١- ألا لا يجني جان إلا على نفسه، ولا يجني والد على ولده، ولا مولود على والده[٢٨].

١٢- وربا الجاهلية موضوع، وأول رباً أضع ربانا، ربا عباس بن عبدالمطلب فإنه موضوع كله، وإنّ كلّ رباً موضوع، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، قضى الله أنّه لا ربا[٢٩].

١٣- وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده، إن اعتصمتم به: كتاب الله وسنة نبيه.

يا أيّها الناس: إنّي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا؛ كتاب الله وعترتي، أهل بيتي[٣٠].

١٤- وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك وأدّيت ونصحت لأمتك، وقضيت الذي عليك، فقال بأصبعه السبابة يرفعها الى السماء وينكبها الى الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد[٣١].

١٥- أيّها الناس: إنّما المؤمنون إخوة، فلا يحلّ لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد[٣٢].

١٦- وإنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا دماءهم وأموالهم، وحسابهم على الله، ولا تظلموا

أنفسكم[٣٣].

١٧- ويحكم أو قال: ويلكم! فلا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض.

ولا يُؤخذ الرجل بجريرة أبيه ولا بجريرة أخيه، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشهد[٣٤].

١٨- أيها الناس: اسمعوا وأطيعوا وإن أمر عليكم عبد حبشي مجدع أسود، أقام كتاب الله عزوجل فيكم[٣٥].

١٩- إن الله يقول: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ][٣٦].

٢٠- أيها الناس: إن ربكم واحد وإنّ أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب ليس لعربي فضل على عجمي، ولا لعجمي فضل على عربي، ولا لأسود على أبيض، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد[٣٧].

٢١- يا معشر قريش: لا تجيئوا بالدنيا تحملونها على رقابكم، ويجيء الناس بالآخرة، فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً[٣٨].

٢٢- أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه رضي أن يطاع

Archive of SID
www.SID.ir

فيما سوى ذلك، فقد رضي بما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم[٣٩].

٢٣- أيها الناس: إنّ النسيء زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدّة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله[٤٠].

٢٤- وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان ـ والشهر تسع وعشرون يوماً وثلاثون يوماً ـ ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد[٤١].

٢٥- إن الله عزوجل يوصيكم بأمهاتكم... أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك.

لا تجني نفس على أخرى..

أذهب الله ـ عزوجلّ ـ الحرج، إلا رجلاً اقترض مسلماً، فذلك الذي حرج وهلك...

وما أنزل الله ـ عزوجلّ ـ من داء إلا وأنزل له دواء إلا الهرم[٤٢].

٢٦- أما بعد أيها الناس: فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهنّ عليكم حقاً، لكم عليهنّ أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن ذلك فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهنّ

ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهنّ رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف[٤٣].

٢٧- فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهنّ خيراً، فإنهنّ عوان لكم عندكم لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاعقلوا أيها الناس، واسمعوا قولي فإني قد بلغت[٤٤].

٢٨- ولا تنفقنّ امرأة شيئاً من بيتها إلا بإذن زوجها، قيل: يا رسول الله(ص) ولا الطعام؟ قال: ذلك أفضل أموالنا[٤٥].

٢٩- على كل أهل بيت في كل عام أضحية واجبة وعتيرة، تدرون ما العتيرة؟ التي تسمونها الرجبية[٤٦].

٣٠- أيها الناس: إن الله قد قسم لكل وارث نصيبا من الميراث، فلا يجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث[٤٧].

٣١- ألا وإن الولد للفراش، وللعاهر الحجر، وحسابهم على الله تعالى[٤٨].

٣٢- ومن أدّعى إلى غير أبيه، أو تولّى غير مواليه، رغبة عنهم، فعليه لعنة الله البالغة الى يوم القيامة، لا يقبل الله منه حرفاً ولا عدلاً[٤٩].

٣٣- العارية مؤداة، والنصيحة مردودة،

Archive of SID
www.SID.ir

والدين مقضيّ، والزعيم غارم[٥٠].

٣٤- ألا إن الصدقة لا تحل لي ولا لأهل بيتي، وأخذ وبرة من كاهل ناقته فقال: وما يساوي هذه أو يزن هذه.

إن المسألة لا تحل لغني، ولا لذي مرة سوي إلا لذي فقر مدقع، أو غرم مفظع، ومن سأل الناس ليشري به ماله، كان خموشاً في وجهه يوم القيامة، ورضفاً يأكله من جهنم، فمن شاء فليقل، ومن شاء فليستكثر[٥١].

٣٥- يا أيها الناس خذوا العطاء ما كان عطاء، فإذا تجاحفت قريش على الملك فيما بينها، وكان على دين أحدكم ـ أو كان رشاً ـ فدعوه[٥٢].

٣٦- أيها الناس: أرقّاءكم أرقّاءكم.. أطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون وإن جاؤوا بذنب لا تريدون أن تغفروه، فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم. أوصيكم بالجار ـ حتى أكثر فقلت: إنه يورثه[٥٣].

٣٧- أيها الناس: إنه لا نبي بعدي، ولا أمة بعدكم، ألا فاعبدوا ربكم وصلّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم طيبة بها أنفسكم وأطيعوا ولاة أمركم، تدخلوا جنة ربكم[٥٤].

٣٨- أيها الناس: نضّر الله أمرئً سمع مقالتي فبلغها، فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه[٥٥].

٣٩- ثلاث لا يغلّ عليهنّ قلب المسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من وراءهم[٥٦].

٤٠- من تكن الدنيا نيته، وأكبر همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له. ومن تكن الآخرة نيته، وأكبر همه، جعل غناه بين عينيه، ولم يفرق عليه شمله، وتأتيه الدنيا وهي راغمة[٥٧].

٤١- إياكم والخيانة، فإنها بئست البطانة، وإياكم والظلم، فإنه ظلمات يوم القيامة. وإياكم والشح، فإنما أهلك من كان قبلكم الشح، فسفكوا دماءهم وقطعوا أرحامهم[٥٨].

٤٢- يا أيها الناس: خذوا من العلم قبل أن يقبض العلم، وقبل أن يرفع العلم. فقال رجل: يا نبي الله، كيف يرفع العلم منا، وبين أظهرنا المصاحف، قد تعلمنا فيها، وعلمناها نساءنا وذرارينا، وخدمنا؟! فرفع النبي(ص) رأسه وقد علت وجهه حمرة من الغضب، فقال: أي ثكلتك أمك، وهذه اليهود والنصارى بين أظهرهم المصاحف لم يصبحوا يتعلقون بالحرف مما

Archive of SID
www.SID.ir

جاءت به أنبياؤهم.

ألا وإن ذهاب العلم ذهاب أهله، ألا وإن ذهاب العلم ذهاب أهله، ألا وإن ذهاب العلم ذهاب أهله[٥٩].

٤٣- عليكم بالقرآن وسترجعون الى أقوام سيبلغون الحديث عني، فمن عقل شيئاً فليحدث به، ومن قال ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار[٦٠].

٤٤- من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين، وله مثل الذي لنا، وعليه مثل الذي علينا، ومن أسلم من المشركين فله أجره، وله مثل الذي لنا وعليه مثل الذي علينا[٦١].

٤٥- من اقتطع من مال أخيه المسلم بيمين فاجرة، فليتبوأ مقعده من النار، ليبلغ شاهدكم غائبكم، ليبلغ شاهدكم غائبكم[٦٢].

من أخذ شبراً من مال أخيه المسلم فليتبوأ مقعده من النار.

٤٦- لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ـ أو قال: مسلمة ـ وإن هذه الأيام ـ أي الأضحى والتشريق ـ أيام أكل وشرب، ونساء وبعال، وذكر الله تعالى[٦٣].

٤٧- ألا إن أولياء الله المصلون، ومن يقيم الصلوات الخمس التي كتبت عليه، ويصوم رمضان، ويحتسب صومه، ويؤتي الزكاة طيبة بها نفسه.

فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله وكم الكبائر؟ فقال:

هي تسع، أعظمهن الإشراك بالله، وقتل المؤمن بغير حق، والفرار يوم الزحف، وقذف المحصنة، والسحر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وعقوق الوالدين المسلمين، وإحلال البيت الحرام قبلتكم أحياءً وأمواتاً.

لا يموت رجل لم يعمل هؤلاء الكبائر، ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، إلا رافق محمداً(ص) في بحبوحة جنة أبوابها مصاريع الذهب[٦٤].

٤٨- ألا إنما هن أربع أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا[٦٥].

٤٩- بأمثال هؤلاء فارموا ـ أي بمثل حصى الخذف.

وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين[٦٦].

٥٠- من لم يجد النعلين فليلبس الخفين، ومن لم يجد إزاراً فليلبس سراويل (للمحرم) [٦٧].

٥١- إن هذا الدين لن يزال ظاهراً على من ناوأه لا يضره مخالف، ولا مفارق حتى يمضي من أمتي اثنا عشر خليفة كلهم من قريش[٦٨].

٥٢- ثم ذكر المسيح الدجال ـ فأطنب في ذكره، وقال: ما بعث الله من نبي إلا أنذره أمته،

Archive of SID
www.SID.ir

أنذره نوح والنبيون من بعده، وإنه إن يخرج فيكم. فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم. إن ربكم ليس على ما يخفى عليكم (ثلاثاً)، إن ربكم ليس بأعور، وإنه أعور عين اليمنى كأن عينه عنبة طافية[٦٩].

٥٣- لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير[٧٠].

٥٤- اللهم إنك تسمع كلامي، وتعلم مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجل المشفق المقر المعترف بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عيناه، وذلّ جسده، ورغم لك أنفه، لا تجعلني بدعائك شقياً، وكن بي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين، ويا خير المعطين. اللهم اجعله حجاً غير رياء، ولا هباء، ولا سمعة[٧١].

٥٥- اللهم لك الحمد كالذي نقول، وخيراً مما نقول، اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي، وإليك مآبي، ولك ربي ندائي.

اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ووسوسة الصدر، وشتات الأمر، اللهم إني أسألك من خير

ما تجيء به الريح ـ وأعوذ بك من شر ما تجيء به الريح[٧٢].

٥٦ - معشر الناس: أتاني جبرائيل (ع) آنفاً، فاقرأني من ربي السلام، وقال: إن الله (عزّوجل) غفر لأهل عرفات، وأهل المشعر، وضمن عنهم التبعات فقام عمر بن الخطاب(رض) فقال: يا رسول الله هذا لنا خاصة؟ قال: هذا لكم، ولمن أتى من بعدكم الى يوم القيامة.

فقال عمر بن الخطاب(رض) كثر خير الله وطاب.

أيها الناس: إن الله (عزّوجلّ) قد تطول عليكم في هذا اليوم فغفر لكم، إلا التبعات فيما بينكم ووهب مسيئكم لمحسنكم، وأعطي محسنكم ما سأل فادفعوا باسم الله.

فلما كان بجمع قال: إن الله قد غفر لصالحيكم، وشفّع صالحيكم في طالحيكم، ينزل المغفرة فيعمهم، ثم يفرق المغفرة في الأرض فتقع على كل تائب ممن حفظ لسانه ويده، وإبليس وجنوده على جبل عرفات ينظرون ما يصنع الله بهم، فإذا نزلت المغفرة دعا هو وجنوده بالويل يقول: كيف أستفزهم حقباً من الدهر ثم جاءت المغفرة فعمتهم فيتفرقون وهم يدعون بالويل والثبور[٧٣].

٥٧- إن أهل الشرك والأوثان، كانوا يدفعون

Archive of SID
www.SID.ir

من ها هنا ـ من المشعر الحرام ـ عند غروب الشمس حين تكون الشمس على رؤوس الجبال، مثل عمائم الرجال على رؤوسها، وإنّا ندفع بعد أن تغيب الشمس، فهدينا مخالف لهديهم[٧٤].

٥٨- أيها الناس: ليبلغ الشاهد منكم الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه[٧٥].

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد.

٥٩- والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[٧٦].

نص خطبة النبي(ص) في عرفات:

«إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً

غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟»، قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها الى السماء وينكتها الى الناس: «اللهم اشهد اللهم اشهد» ثلاث مرات.

رواها مسلم[٧٧] وأبو داود[٧٨] وابن ماجة[٧٩] وابن حبان[٨٠] والبيهقي[٨١] والدارمي[٨٢] وابن خزيمة[٨٣]، كلهم من حديث جابر بن عبد الله(رض).

من القيم الحضارية:

١ – الميثاق الإسلامي لحقوق الإنسان:

يساق هذا الكلام بمناسبة الأشهر الحرم وأيامها المباركات التي نجد ريحها اليوم ونحن في أيامها توشك شمس أفضل أيام السنة أي العمر والدنيا والحياة أن تغمرنا وليس هو سوى يوم عرفة فطوبى لرجل صامه إيماناً واحتساباً متوصلاً الى شطب ذنوب عام قضى وآخر حل وطوبى لرجل وطأت قدماه فيه جبل عرفات ثم انحدر منه كيوم ولدته أمه وليس كبنك الرحمن سبحانه يمن بمثل هذا العطاء وإعادة جدولة الديون بما يمحوها بالكلية دون شرط ولا قيد.

Archive of SID
www.SID.ir

كما يساق هذا الكلام بمناسبة انقسام الناس فوق البسيطة في شأن النظرية الحقوقية ثقافة قولية وعملية بين ثلاث مرجعيات كبرى: طبيعية ودينية وعقلية ونتجاوز التفصيل هنا في محاولة لبسط مختصر لأصول النظرية الحقوقية في الإسلام أو الميثاق الإسلامي لحقوق الإنسان من خلال خطبة حجة الوداع وربما نوطئ لذلك بما يمكن أن نطلق عليه فقه الحرمات في الإسلام فالحاجة إليه أكيدة ماسة غير أن المساحة ضيقة.

إن موضوع حقوق الإنسان وهو موضوع العصر بامتياز ولغته المشتركة وعملته الثقافية، والذي باسمه تجتاح العولمة بعجرها وبجرها الدنيا وتداس السيادات ويباح الاحتلال والنهب.. هو مفتاح النهضة الإسلامية المعاصرة وعليه تتأسس ويتواصل تشييدها ثقافة قولية وعملية في آن واحد فكل بحث فيها هو جهاد في سبيل الله تعالى وكل تربية سلوكية على أساسها كذلك وقطرة مداد منه ترجح قطرة دم تهراق. أما ثانيهما فهو أن الموضوع بحاجة حتى يكتمل الى إعتماد منهج المقارنة من ناحية وقراءة في طبيعة وهوية هذا الميثاق مقاربة لأسسه الكلية غير أن المجال هنا ضيق فلا يبخلن أحد بالإتمام والإكمال.

٢- فقه الحرمات يؤسس للنظرية الحقوقية الإسلامية:

ليس فقه الحرمات سوى بذل الوسع العقلي وخاصة الجماعي ولا سيما من أهله في محله من أجل تعميق الفهم وتدقيقه في مسألة المساحات التي أحاطها الله تعالى بالصون والحرمة والتكريم والقدسية، مرتباً أعلى العقوبة على واطئها بغير حق، فهي حمى محمية وليست هذه سوى ثلاث: وهي الإنسان مطلقاً عقلاً وروحاً ونفساً وعرضاً ومالاً وفرداً وجماعة، وكذلك الزمان أو بالأحرى ثلثه أي الأشهر الحرم الأربعة منه، وكذلك المكان أي أجزاء كبيرة منه ليس هنا مجال التفصيل فيها. وليس المقصد الإلهي من تحريم الإنسان وثلث الزمان والمكان سوى تضييق مساحات الاعتداء والظلم بين الناس الى أبعد حد ممكن بالقانون وعبر وازع التقوى وفي المقابل نشر مناخات السلام والأمن والتعارف والبناء والتعاون والتعمير والحياة الكريمة والحرية الى أبعد حد ممكن. يتبين أنه فقه الحرمات في الإسلام بأسسه الثلاثة الكبرى الإنسان والزمان والمكان كفيل الى جانب بقية جوانب الدين وداعيات الفطرة وسلطان القوة وسابغات العقل بتأسيس النظرية الحقوقية الإسلامية أو مبادئ ميثاق حقوق الإنسان في

Archive of SID
www.SID.ir

الإسلام.

إن المبادئ السبعة لخطبة حجة الوداع لحمة وسدى الميثاق الإسلامي لحقوق الإنسان:

١ - حق الحياة الكريمة فريضة مقدسة «يا أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا من شهركم هذا في بلدكم هذا الا هل بلغت اللهم فاشهد».

٢- حق العدالة والقسط في تكافؤ فرص الكسب والمساواة في التوزيع على قاعدة الرجل وبلاؤه والرجل وكسبه وضمان الكفاية دوماً «يا أيها الناس إن ربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضعه تحت قدمي هاتين ربا العباس ألا هل بلغت اللهم فاشهد».

٣- حق المساواة الإنسانية الكاملة أمام المآثر والمناقب على قاعدة العمل والكسب والجهد لا على قاعدة النسب أو العرق أو المال «يا أيها الناس إن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية والعمد قود وفي شبه العمد مائة بعير ألا هل بلغت اللهم فاشهد».

٤- حق المرأة في الحياة الكريمة حق مقدس ضمن مؤسسة الأسرة خلية الأسرة الاجتماعية والإنسانية الكبرى، على قاعدة الغنم بالغرم أو تكافؤ الحقوق مع الواجبات «يا أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقاً وإن لكم عليهن

حقاً فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً ألا هل بلغت اللهم فاشهد».

٥- حق الاجتماع والأخوة والتعاون وحرية الاختلاف بضمان الوحدة حقوق مقدسة «يا أيها الناس إنما المؤمنون إخوة فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ألا هل بلغت اللهم فاشهد».

٦- حق المعتقد والانتماء وحرية التدين والعبادة وحرية الفكر والإصلاح والتغيير حقوق مقدسة وحريات مصونة «يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي وعترتي ألا هل بلغت اللهم فاشهد».

٧- حق المساواة أمام الأصل البشري وحق البشرية جمعاء في العبودية لخالقها الحق وولي أمرها، وحق انتسابها الفطري لأبيها آدم، وحرية تساويها جمعاء أمام مقتضيات ذلك كله «يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم ألا هل بلغت اللهم فاشهد».

إن الأسس في النظرية الحقوقية الإسلامية أو ميثاق حقوق الإنسان هو حق الإنسان مطلقاً في الحياة والكرامة وكسب المال والعدل والقسط

Archive of SID
www.SID.ir

والمساواة وصون عرضه وشخصيته المعنوية وحق المرأة كولي مسؤول عن سائر شأنه، مخير ومحاسب، وحقه في الأخوة والاتحاد والتعاون والتجمع الايجابي السلمي الأهلي المدني الديمقراطي الحائل دون إهراق الدماء وإفناء الإنسان وقتل الإرادة وبسط الخوف والهلع والإرهاب، وكذلك حقه في اختيار عقيدته ودينه وعبادته وطقوسه ومنهاج حياته ومعاملاته وسلوكه في كل شأنه وحقه في معرفة ربه أي في العلم والعرفان وحرية الفكر والعقل مع ضمان التنوع من جهة وضمان الأمن والسلام من جهة أخرى وحقه كذلك في الانتساب الى أب الناس جميعاً آدم فطرة وجبلة بما يكرمه عن العجماوات والمادة.

حقوق الإنسان في النظرية الإسلامية هي في الحقيقة فرائض مفروضة وعزائم معزومة وواجبات موجوبة لا يفرط فيها طالبها، وإن بذل فيها روحه؛ إذ إن إثم القاعد دون حقه في الحياة الكريمة يستوي مع إثم سالبها منه دون وجه حق. كما أن تلك الفرائض شمولية كما تقدم لنا فهي تنبسط على الحياة المعنوية والمادية والفكرية والعقلية والروحية والفردية والجماعية، كما أن تلك الفرائض

عالمية لا تخص إنساناً دون آخر لتفارق النظرة المركزية الأنانية الجشعة لحقوق الإنسان الأبيض في أوروبا وأمريكا وهي كذلك تتميز بالتوازن والاعتدال بين المطالب البدنية والروحية وبين المرأة والرجل وبين الأسرة والمجتمع وبين الحقوق والواجبات إلخ...

لقد استفتح الرسول(ص) خطبته الكريمة بما هو مخالف لعادة الجاهلية بالكلية؛ حيث بدأ بحمد الله واستغفاره واستعانته به والتماس الهداية منه قال ابن مسعود: علمنا الرسول(ص) خطبة الحاجة (إن الحمد لله نستعينه ونستغفره...)

وفي هذا الاستفتاح رد الفضل الى صاحبه ونسبة النعمة الى منعمها ـ وفيها رد الهداية الى الله ـ وتأكيد ركن الإسلام الركين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله والتأكيد على تقوى الله وطاعته لأنها عماد الأمر وسفينة النجاة.

لقد تاهت البشرية طويلاً وهي تتيه اليوم ـ بعيدة عن جادة الصواب وعقيدة التوحيد الصحيحة ـ هذه العقيدة التي تمثل بوصلة الاتجاه الصحيح لسعادة الدنيا والآخرة ـ وهي المفتاح الذي بقي الرسول (ص) ـ ممسكاً به لفتح مغاليق القلوب وسيبقى كذلك.

Archive of SID
www.SID.ir

فإذا كان المقام هو مقام اللجوء الى الله طلباً لرضاه إعلاناً بانتصار راية التوحيد فإن المقال هو خطبة جامعة مودعة ختم بها النبي(ص) مسيرته الجهادية، ولذلك لم تخل الخطبة من كلمتي (ألا هل بلغت اللهم فاشهد).

إنها كلمات النبوة التي أتت بعد جهد القلب والعقل والجوارح فاخترقت حجب الزمان، وقد بلغنا الآن صداها وسيستمر هذا الصدى الى أن يرث الله الأرض وما عليها. وفيها قيمة حضارية أخرى ألا وهي عالمية الخطاب بقوله(ص) يا أيها الناس، وهي خطبة الضروريات مما سنتناوله في الفقرة التالية:

٣- حجة الوداع: خطبة الضروريات:

من الأمور التي أكد عليها النبي(ص)، حفظ الدماء والأموال والأعراض، وهذه الثلاث من الكليات الخمس للشريعة الإسلامية والمتمثلة في حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، والمقصود بالحفظ: الحفظ وجوداً وعدماً، إذ الشريعة الإسلامية شرعت وسائل حد السرقة حفظاً للمال من جانب العدم، والحفظ معنى دقيق ينبغي تفعيله في خطابنا الإسلامي المعاصر، وخصوصاً لما يتعلق الأمر بالضروريات التي لا

تستقيم الحياة بزوالها أو ضياعها، فلما تصبح الأرواح دماؤها رخيصة من غير حق، وتصبح الأعراض منتهكة من طرف المجرمين، فالحياة ستعم فيها الفوضى والاضطراب، ولما تكون هذه الضروريات الخمس في مأمن من عبث العابثين وانتهاك المنتهكين، فسيعم الخير والسعادة والطمأنينة، ولذلك أكد النبي(ص) في خطبته على حرمة المال والأعراض والدماء...

والخطاب الإسلامي المعاصر إن لم يهتم بحفظ هذه الكليات الخمس فهو يخبط عشواء، بل ينبغي أن يدعو المجتمعات الإنسانية الى حفظها، وهي في الحقيقة تشكل أرضية مركزية للتواصل مع الآخر، لأن علماءنا أكدوا على أن جميع الملل والنحل مجمعة على حفظ هذه الخمس وما يعيشه المجتمع العالمي من اضطراب وفوضى وعبثية إنما مرده لعدم حفظ هذه الكليات، فلو نظرنا الى الدماء، فالإنسان أصبح دمه مباحاً في العالم وخصوصاً الإسلامي منه، في العراق وفلسطين والصومال وأفغانستان.

ولذلك فهي من القضايا المركزية التي ينبغي على الخطاب الإسلامي المعاصر معانقتها والدعوة إليها.

الفقرة الثالثة:

Archive of SID
www.SID.ir

أيها الناس: أي يوم هذا؟ أليس يوم النحر قالوا: بلى، فأي شهر هذا؟ أليس بذي الحجة؟ وفي رواية أليس بشهر حرام؟ قالوا: بلى، فأي بلد هذا؟ أليس البلد الحرام؟ فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم حرام عليكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، وحتى دفعة دفعها مسلم يريد بها سوءًا، ألا هل بلغت فليبلغ أدناكم أقصاكم اللهم فاشهد.

الفقرة الرابعة:

سأخبركم من المسلم، من سلم الناس من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله تعالى.

والمؤمن حرام على المؤمن، كحرمة هذا اليوم لحمه عليه حرام أن يأكله بالغيبة فيغتابه، وعرضه عليه حرام أن يخرقه، ووجهه عليه حرام أن يلطمه، ودمه عليه حرام أن يسفكه، وماله عليه حرام أن يظلمه، وأذاه عليه حرام وهو عليه حرام أن يدفعه دفعاً.

الفقرة: ٢٠

أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب «ليس لعربي

فضل على عجميّ ولا لعجمي فضل على عربي ولا لأسود على أبيض، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم فاشهد».

الفقرة: ٤٩

«إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين».

في إطار التوجيهات النبوية في هذه الفقرات نجد فيضا منها عامرًا بالقيم الحضارية كما أسلفنا.

١ - حرمة الدم والمال والعرض.

٢- علاقة المسلم بالآخر وإيجابية هذه العلاقة.

٣- حرمة ما دون الدم من لطم وأذى.

٤- وحدة الأصل البشري ووحدة الإنسانية ومعيارية التفاضل.

٥- وسطية الإسلام ويسر الدين وعدم الغلوّ.

إن الإنسان مخلوق مكرم من حيث كونه إنسانا من الأصل [وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً] (٨٤)، [لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ] (٨٥) ، [وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ] (٨٦).

وسخر الله للإنسان ما في الأرض وطوعها

Archive of SID
www.SID.ir

لمعيشته: [أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً] (٨٧).

ويقول الرسول(ص): «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاثة: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق للدين التارك للجماعة».

تمثل هذه الفقرة من هذه الخطبة إعلانا واسع المدى بنهاية الجاهلية في الجزيرة العربية في أخصّ تأثيراتها ومظاهرها في الدماء والأموال والسلوك والشعائر ـ إن القيمة الحضارية في هذا التوجيه تتمثل في حرمة دم المسلم ـ والإسلام يعتبر قتل النفس بدون مسوّغ شرعي من أكبر الكبائر فكيف إذا كانت هذه النفس نفساً مؤمنة مطمئنة يقول تعالى: [وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا] (٨٨)، [مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا] (٨٩) ثم حرمة الدم بشكل عام.

إن الإسلام إذ جاء لتنظيم الحياة لم يدعها فوضى في قلوب الناس أو في نفوسهم، وإن الاستخفاف بالدماء والأرواح حالة تتكرر حين ينحط مستوى الأمم السلوكي والفكري فيتحول

المجتمع الى غابة تحكمها قوة العصابة ويُنتحى الحق فيها الى ركن قصي بعيد وولي الأمر هو المسؤول عن أخذ هذا الحق.

إن كثيراً من الذين سمعوا الخطبة قد عاشوا فترة الدماء قبل الإسلام فهتف بهم الرسول(ص) جميعاً ـ إن الدماء قد أصبحت مصونة مكرمة ـ وإذا كانت الحرمة هي الكعبة والبيت والشهر الحرام فليعلم الجميع أن حرمة المؤمن هي أعظم من حرمة الكعبة ـ ولا يجوز أن يُعتدى بعد اليوم على دم مسلم إلا بحق شرعي تقوم به السلطة ـ ومن تعدى ذلك فجزاؤه [جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا] (٩٠).

إن الحياة منحة ربانية أعطيت لنا لنستمتع بها ونعمل على حفظها وصيانتها الى أن يأتي الأجل وليس لأحد مهما كانت مكانته وسلطته أن يغصب الإنسان حق الحياة ـ والإسلام لم يشرع القصاص في القتل إلا للحفاظ على هذا الحق المقدس. لقد كفلت الشريعة الإسلامية حق الحياة واعتبرت أن إزهاق الروح بغير وجه حق جريمة ضد الإنسانية ـ واعتبار حق الحياة حقاً مشتركاً مما يتمتع به جميع الناس ـ وتحريم القتل بغير وجه حق وحرمت على الإنسان قتل نفسه، واعتبر الإسلام المحافظة على حياة الإنسان الفرد حفاظ

Archive of SID
www.SID.ir

على حياة الأمة.

وقد قسم الفقهاء الحقوق الى ثلاثة اقسام: الأول حق الله تعالى والثاني حق العبد والثالث الحق المشترك فالقصاص حق الله لان الجاني هدم بناءً وهو الإنسان وكان الرسول (ص) يعتبر حرمة دم المسلم أشد حرمة من الكعبة.

إن الإسلام قد ضمن حق الحياة للإنسان كما ضمن له حق الحرية بما فيها حق العقيدة والدين وضمن له حق العدالة وحق المساواة وحق الكرامة والتملك ـ وتجاوزت الحقوق الإنسان إلى ما في الكون من حيوان وأشجار ونباتات. وفي تقسيم آخر للحقوق قسمت الى خمس مجموعات: الحقوق الشخصية والجسدية، والحقوق القضائية والقانونية، والحقوق الفكرية والسياسية، والحقوق الاقتصادية والاجتماعية، والحقوق التعليمية والثقافية.

لقد دخلت قضية الاعتداء على حياة الناس مدخلاً جديداً في عصرنا الحاضر احتمت بسلطة الدين ووظفته في خطاب يرتكز على الأحادية والوثوقية في الرؤية والتفكير بحيث إن المتطرف يملك وحده الحقيقة ويرفض التعددية الفكرية والاختلاف ولا يكون لديه الدين سعياً متواصلاً للوصول الى الحقيقة وإنما هو يملك الحقيقة وأن الله قد اختارهم لنشرها وأنهم

وحدهم يملكون المرجعية الإسلامية الصحيحة ويعكس هذا على المجتمع الإسلامي موقفاً ينكر على المجتمعات الإسلامية تاريخيتها ونسبيته أحداثها وفحص التراث البشري من منظوره الإسلامي كاف لوضع حد لفكرة التطرف، كما أن احتكار المعجم الإسلامي والتصرف في معناه هو الآخر شكل من أشكال تثبيت منهج التطرف بحيث يستغل الثراء في معاني النص الديني لتأويل الرموز والمفاهيم الدينية كالجهاد والاستشهاد والشورى والصراط المستقيم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والردة ـ وهو يفرض أيضا منطق الإقصاء والعداء.

لن أخوض كثيراً في قضية الإرهاب وأثرها على إزهاق أرواح كثير من المسلمين الأبرياء، وكثير من غير المسلمين ممن لا علاقة لهم بالحرب على الإسلام، وهذا الأمر هو خارج نص المقاومة للاحتلال من ناحية وتقييم السياسيات للدول من ناحية أخرى ويدخل في إطار العلاقة بين أمرين ـ بين المسلمين أنفسهم بكل مكوناتهم ـ وبين المسلمين وغيرهم من الشعوب مما نسميه العلاقة مع الآخر.

وقد وردت مشتقات كلمة رهب ـ والتي تعني الخوف والتخويف والرعب والذعر والفزع ـ وإرهاب هي مصدر الفعل أرهب وتستعمل الرهبة

Archive of SID
www.SID.ir

في اللغة العربية للتعبير عن الخوف المشوب بالاحترام وهي تختلف عن الإرهاب الذي يعني الخوف والفزع وردت في القرآن الكريم مرة بمعان متعددة لكن المعنى بمجمله ينحصر في الخوف والتحرز وهي كذلك في المعاجم الاجنبية[٧٩] إن الإرهاب يمثل اعتداء على حقوق الإنسان حيث اعتبرته لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة والمؤتمر العالمي لحقوق الإنسان، تقويضاً لحقوق الإنسان والحريات الاساسية، اكدت التأثير المتبادل بين الإرهاب وحقوق الانسان، فبقدر ما يريد أنصاره ان ينعموا بالحقوق بقدر ما يحرموا الآخرين منها، كما أن في سعيه للتمتع بحقوق الإنسان في بعض الدول فهو يهدر هذه الحقوق في المجتمعات التي يمارس فيها جرائمه.

إن الإرهاب يتعارض مع حق الإنسان في الأمن والعيش في سلام كما أنه قد يدفع بالدولة الى تحويل بعض الموارد الى مكافحته مما يعطل جهود التنمية. فخطف واحتجاز الرهائن يمثل اعتداء على حق الإنسان في الحياة والأمن والحرية؛ لأن الإرهاب هو كل استخدام أو تهديد باستخدام عنف غير مشروع لخلق حالة من الخوف والرعب بقصد التأثير أو السيطرة على فرد أو مجموعة أو حتى المجتمع وصولا الى هدف معين[٨٠].

إن تحقيق الأمن في المجتمعات التي رفعت شعار

مقاومة الإرهاب حقاً أو باطلاً قد تجاوزت فيه على حقوق الناس بحجة الأمن.

لقد ذم الإسلام التطرف والغلو، جاء النهي عن الغلو في قوله تعالى: [قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ] [٩١].

قد يكون الغلو في الدين بسبب سوء فهم لحقيقة الدين أو من اجتهادات ذات المغالي أو من اجتهادات من علّمه، وقد يكون بسبب الرغبة في احتلال مركز الاحترام والتقدير عند العامة الذين قد يرون الغلو في الدين ارتقاء في المراتب ولا يفهمون أن كمال التدين هو بالتزام حدود الله دون تفريط أو غلو[٩٢] إن التطرف يعطي بصورة لا تتناسب مع سماحته والأدهى أن يتحول هذا الفكر السليم الى مبدأ تؤلف فيه الكتب وتبنى عليه مواقف، إن هذه العقليات أقل من أن تؤمن على مستقبل شركة مساهمة فكيف يتاح لها التحدث في دين كبير؟! إن الطاعة المطلقة التي تستند الى التبعية في المنشط والمكره هي الباب الذي تندفع منه جموع الشباب الى مصارعها والى إهلاك الحرث والنسل من حولها دون توقف أو مراجعة.

Archive of SID
www.SID.ir

٤- المسؤولية الفردية. نظام عادل للعقوبات (كل نفس بما كسبت رهينة):

«ودماء الجاهلية موضوعة» وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث...

«ألا لا يجني جان إلا على نفسه ولا يجني والد على ولده ولا مولود على والده..»

«ولا يؤخذ الرجل بجريرة أبيه أو أخيه، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم...»

لقد جنت الدماء في الجاهلية على كثير من الأبرياء، وقامت حروب بفعل مفسد أو سفيه ـ جاء القرآن ليؤكد المسؤولية الفردية ـ [مَّن اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسه وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزرُ وَازرَةٌ وزْرَ أُخْرَى] (٩٣).

لا يتحمل الإنسان خطأ القريب مهما كان ـ إنّ ارتهان أفراد أسرة ما بسبب خطأ ارتكبه أحد أفرادها يتنافى مع المسؤولية الفردية التي أقرها الإسلام. بعد أن أسلموا وأذعنوا قد انتهت الغارات والثارات فلتكن غارات في سبيل الله وثارات للشهداء.

إن جميع المسلمين اليوم مرتهنون لأفعال قد يقوم بها البعض في إطار ما يسميه: «الإرهاب» والتدقيق يجري على الاسم ويجري على السحنة واللون والدين، وهذا ما نهى عنه الإسلام كما أنه لا يجوز لنا أن نعتبر جميع المسيحيين أن النصارى أعداء بفعل سياسات دولهم؛ لأن الدول

في كثير من الأحيان وإن كانت الديمقراطية عنواناً للحكم فإن كثيراً من السياسات تجري بغير رغبة شعوبهم.

٥- قيم الكرم مقابل الشح:

وقيم العدل مقابل الظلم.

وقيم الأمانة مقابل الخيانة.

يقول الرسول(ص) «من كانت عنده أمانة فليؤدها الى من إئتمنه عليها» ويقول: «إياكم والخيانة فإنها بئست البطانة، وإياكم والظلم فإنه ظلمات يوم القيامة وإياكم والشح فإنما أهلك الذين من قبلكم الشح فسفكوا دماءهم وقطعوا أرحامهم...»

إن أية حضارة تقوم لا بد أن يكون لها ركنان ركن مادي به تعمر الأرض ويتحقق معنى الخلافة في شقه الاستكشافي وشق معنوي يحفظ هذا الشق من الانزلاق الى هاوية سحيقة، هناك في الحياة ما يسمى «الأخلاق الأساسية» وهناك ما يسمى (الأخلاق الإسلامية)، والأمم تشترك بالأخلاق الأساسية كقيم الكرم والعدل والأمانة التي وردت في بلاغ حجة الوداع، ولكن هذه القيم تبقى بدون سقف أعلى لا تتعداه وسقف أدنى لا تنزل عنه، مثلاً الكرم ـ إذا زاد عن حده أصبح إسرافاً، والإسلام قد نهى عن الإسراف وجعل

Archive of SID
www.SID.ir

المبذرين إخوان الشياطين، ونهى عن النزول الى أدناه واعتبر ذلك شحاً ونهى عن الشيح ـ وفوق كل هذا جعل لهذه الصفات والأخلاق (قيمة) و(هدفاً)، فأنت تكرم لا ليقول عنك الناس كريماً، ولكن لأن الكرم بحد ذاته فضيلة، ولا تصدق ليقول عنك الناس صدوقاً، بل لأن الصدق فضيلة، إن ميزان العدل هو الميزان الذي قامت عليه السماوات والأرض [وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ][٩٤].

والأمة الكافرة تنتصر بالعدل وتنهزم الأمة المسلمة بالظلم، والله ـ سبحانه وتعالى ـ حرّم الظلم بكل أشكاله: ظلم الإنسان لنفسه وابتعاده عن منهج الله، وظلم الإنسان لأخيه الإنسان ولمن هو مسؤول عنهم ـ ظلم المسؤولية، ظلم الحكم ، ظلم المحكوم، ظلم الخادم، والابن والجار، ظلم الدول للدول، والشعوب للشعوب، إن القيمة الحضارية في حجة الوداع قد ركزت على العدل ونهت عن الظلم (وإياكم والظلم فإنه ظلمات يوم القيامة) - الآيات والأحاديث كثيرة التي تنهى عن الظلم، والظالمين، وموالاتهم وابن خلدون له مقولة مشهورة حيث يقول: (الظلم مؤذن بزوال العمران) ما من أمة أو شعب أو دولة ظَلمت إلا وزالت هكذا كان الفرس والروم عند ظهور الإسلام، وعندما جاء

المسلمون بالعدل وسمعوا بعدلهم رحبوا بهم وسهلوا لهم مهمة الفتح. في كل زمان عندما يظلم الناس باسم القانون، ويخضع القانون للهوى، يكون الناس قد خرجوا من إنسانيتهم، العدل العدل مهما كان.

الأمانة دائماً هي عنوان للإسلام، وسلوك للمسلمين والأمانة مطلوب أداؤها واعتبر التفريط بها واحدا من علامات قيام الساعة، وكانت من أبرز أخلاق الرسول(ص) حيث كان يسمى الصادق الأمين، كان محط ثقة قريش تضع عنده أماناتها وتأتمنه على الغالي، وأبرز الأمانات هي أمانة العقيدة والحفاظ عليها، أمانة الإسلام والالتزام به، أمانة السلوك الإسلامي والتمثل به، أمانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأداؤه، والأمانة لا يجوز أن تكون بين المسلمين فحسب، بل أمانة في التعامل مع كل الناس بغض النظر عن الدين، إن خيانة الله ورسوله، وخيانة المنهج هي أعظم أنواع الخيانة، ـ وهكذا نجد هذه القيم الثلاث الكبرى من القيم الحضارية التي أكدتها حجة الوداع .

٦- البناء الاجتماعي (قيمة الأسرة ومسؤولية النساء):

ـ أيها الناس (فأن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً عليهن أن لا يوطئن فرشكم

Archive of SID
www.SID.ir

أحداً تكرهونه... فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً فإنهن عوان عندكم لا يملكن لنفسهن شيئاً ـ وإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ـ فاعقلوا أيها الناس...).

ـ (ألا وإن الولد للفراش وللعاهر الحجر ـ وحسابهم على الله تعالى ـ)

ـ (من ادعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه، رغبة عنهم فعليه لعنة الله البالغة الى يوم القيامة لا يقبل الله منه حرفاً ولا عدلاً...)

ـ (لا تزنوا...)

ـ ينبه الرسول(ص) الى أهمية الركائز التي يقوم عليها البناء الاجتماعي والركيزة الأولى هي الأسرة فلا سلامة إذا لم تسلم الاسرة من غوائل الاعتداء ولم تنهض من نطاق التسلط.

لقد تناولت خطبة الوداع العناية بالمرأة ـ والرقيق، وتحديد الأنساب وتوزيع المواريث ـ في تلك الحقبة من التاريخ كانت المرأة في أسوأ أوضاعها، حتى نظرة الإنسانية لم تنظر إليها ولم تساوها بالمخلوقات البشرية، وحرمتها من أبسط حقوق المخلوقين، وأنزلتها الى مستوى العجماوات والحيوانات: [وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَى مِنَ

الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ] [٩٥]، [وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ] [٩٦]، [وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ] [٩٧].

واليوم يهتز كيان الأسرة على مسرح العالم من خلال الأبناء غير الشرعيين واللقطاء والاستهانة بالأسرة ومرتكزها، لقد كانت المرأة محرومة من حق الإرث من والديها وأهلها وكانت جزءاً من المتاع حتى نزل قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ] [٩٨] ولم يكن للنساء عدد وكانت سلعة للمقايضة ـ لقد جاءت سور القرآن تعالج موضوع المرأة (الطلاق)، (المجادلة)، (التحريم)، (الممتحنة)، (مريم)، (النور).

نلاحظ في الآيات الكريمة التي كرّمت المرأة: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء] [٩٩]، [وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] [١٠٠].

كان النكاح في الجاهلية على أربعة أوجه

Archive of SID
www.SID.ir

النكاح المعروف بالخطبة والزواج، ونكاح الاستبضاع، ونكاح الرهط والبغايا.

أعلن الرسول(ص) أن المرء مرتبط بأبويه أمه وأبيه وليس له أن ينتسب ألى غيرهما.

بالرغم مما أصاب الأسرة الإسلامية من انتكاسات فلا زالت هذه الأسرة الى الآن تمثل نموذجاً أفضل من بين النماذج التي تقدمها القيم الإسلامية للمجتمع الإنساني.

٧- قيم الوسطية والاعتدال مقابل الغلو والتطرف:

يقول الرسول(ص) في حجة الوداع: (وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك الذين من قبلكم الغلو في الدين).

والغلو هو المبالغة وتجاوز الحد الذي شرعه الله تعالى. إن النهي عن المغالاة والتعمق في قضايا معينة والابتداع فيه والزيادة على التشريع الرباني هو جانب الإفراط الذي يُخشى منه على الدين بتنفير الناس منه ودفعهم الى تركه جملة أو الهجوم على المحرمات المعلومة من الدين بالضرورة نتيجة التركيز على مستحبات ونوافل أو التنفير الشديد من مكروهات.

ويقابل هذا الجانب جانب التفريط الذي لا يرقى الى الالتزام بالتشريع والتسهيل بكل شيء حتى بالمحرمات والتهاون بالفرائض

والأركان.

يقابل هذا المصطلح مصطلح (الوسطية) يقول الفيروز آبادي الوسط من كل شيء أعدله (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) أي عدلاً خياراً[١٠١] قالوا في المدح:

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمعضل

وينقل ابن منظور عن أحد العرب قوله[١٠٢]: (علمني ديناً وسوطاً لا ذاهباً فروطاً ولا ساقطاً سقوطاً)، ويقول الإمام علي: (خير الناس هذا النمط الأوسط، يلحق بهم التالي ويرجع إليهم الغالي)[١٠٣].

أما الوسطية في المعنى الاصطلاحي فهي حالة محمودة تعصم الفرد من الميل الى جانبي الإفراط والتفريط أو هي التوازن والتعادل بين الطرفين بحيث لا يطغى طرف على آخر فلا إفراط ولا تفريط ولا غلو و تقصير وإنما إتباع للأفضل والأعدل والأجود والأكمل. ويعبر عنها بالتوازن الذي يعطي كل ذي حق حقه والتوازن أن يفسح لكل طرف مجاله. فهي وسطية في الشعائر: [وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً][١٠٤]، وهي وسطية في الإنفاق: [وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا][١٠٥] ، وهي وسطية في السلوك: [واقصد في مشيك واغضض من صَوتِكَ][١٠٦] ، وهي

Archive of SID
www.SID.ir

وسطية في المعاملات: [واوفُوا الكيل والميزان بالقسط] (١٠٧)، ووسطية في القضاء: [فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطُوا] (١٠٨)، ووسطية خيرية وشاهدة على الأمم: [وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاس وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا] (١٠٩)، ووسطية في الزمان [حافظوا على الصّلاة والصلاة الوسطى] (١١٠)، ووسطية في المكان: [فوسطن به جمعاً] (١١١).

كما ركزت السنة المطهرة على الوسطية (إن هذا الدين متين ولن يشادّ أحد الدين إلا غلبه) (١١٢) ومنها الدعاء (وأسألك القصد في الفقر والغنى والعدل في الغضب والرضا) (١١٣) ومنها (أما والله إني لأخشاكم الى الله وأتقاكم لله ولكني أصوم وافطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني) (١١٤).

إنها وسطية في العقيدة الموافقة للفطرة التي تعتمد منهج القرآن والسنة النبوية وتهتم ببيان أثر العقيدة في النفوس وتعتمد النقل والعقل وتقوي الصلة بين الوجدان الإنساني والخالق، وتتكامل فيها بناء العقيدة، وتؤمن أن تكفير المسلم لا يكون إلا بأمر قاطع.

وهي وسطية في الشعائر التي تدعو الى عمارة الأرض ووسطية في المنهج التي تؤمن بشمول في التصور وأسبقيات في الفهم ومرحليات في البناء وتكامل في السلوك ووسطية في التجديد

والاجتهاد يربط بين العصر والأصل، ويعظم الأصول ويسر في الفروع ووسطية في التفاعل الحضاري خصوصية بلا انكفاء وتفاعل بلا ذوبان والإيمان بوحدة الأصل الإنساني وعنوان التعارف والتعايش والتعاون والتي تركز على مجموعة مبادئ منها: (١١٥)

التركيز على المنظومة القيمية في علاقاتنا مع الآخر تؤكد على وحدة الأصل الإنساني وهو ما أكدت عليه فقرات حجة الوداع ـ والتعامل بالبر وبالمجادلة بالتي هي أحسن وإيجاد الجوامع المشتركة وإعلاء الإنسان المتفقّه، فالحضارات تتقاسم أقداراً من القيم مثل العدل والمساواة والحرية وأهل الحكمة من كل ملة يستحقون الشكر والتقدير بحيث لا نرى الغرب كتلة واحدة بل نتعامل معه على أساس أنه دائرة متسعة الأرجاء متعددة المنافذ وتأكيد الالتزام الواضح بالحرية وحقوق الإنسان ومشروعية الخلاف الفكري والتعدد الديني والثقافي ونبذ العنف في العمل السياسي والدعوة الى إحياء مبدأ التساكن الحضاري واستكمال التوازن المفقود في الحضارة الغربية بالأساس الأخلاقي والبعد الإنساني يكون بدلالة الحال وتقديم الحلول للمشكلات المتفاقمة في البناء الاجتماعي وتأكيد مبدأ الاعتزاز بلا استعلاء والتسامح بلا هوان. إن هناك مجالات

Archive of SID
www.SID.ir

للتعاون الإنساني ضمن مفهوم الإسلام وعندما يقول الرسول(ص): (والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه) فالخطاب عام، إن الكرامة الإنسانية واعتبار الناس أمة واحدة والتسامح والحرية، والوفاء بالعهد، والعدالة، والفضيلة، والمودة، ومنع الفساد كلها عناوين يمكن للبشرية أن تتعاون على تقويتها، وإن التعارف كما أسلفنا، والتداعي الى السواء، والتفاعل بالحسنى كلها عناوين تقوي هذا الاتجاه.

لقد أكد الإسلام وحدة النفس البشرية، وأن دين الله واحد من آدم الى محمد(ص) وأن الشرائع متعددة، لذلك كان التنوع والاختلاف باختلاف الشرائع، فتكون الكرامة الإنسانية التي تحترم الإنسان الآخر لوناً وعرقاً وجنساً ولغة وثقافةً، حيث تكون خاصية (الشمولية والتعميم) هي الأساس مما يؤدي الى نضوج خيار التمازج والتداخل والتواصل والحوار المتبادل ضمن وحدة العنصر البشري ومبدأ الحرية والعدالة.

إن دروس التاريخ الإنساني علمتنا أن إلغاء الآخر ونبذه لا يحافظ على مصالح الذات ومكتسباتها وإنما يزج بالجميع في دائرة لا متناهية من العنف والإقصاء لذلك ينبغي أن نستشعر كما قلنا قيمة النمطية في العلاقة

الحضارية التي أكدها الإسلام [يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ] (١١٦).

ورحم الله الحسن البصري إذ يقول: (دين الله فوق التقصير ودون الغلو) إن التوجه المغالي في الشريعة إذا كان في أفراد قليلين فلا يضرّ ويمكن علاجه بسهولة ويسر ولو تركوا لكان الأمر يسيراً ولكن عندما يتحول الى تيار ودعوة ويدّعي أنه الإسلام الصحيح منها يأتي الخطر وتعظم المصيبة وذلك في فهم الناس وإجبار الناس عليه إن التيسير هو دون النزول عن الفرائض ودون الاقتراب من المحرمات مع فتح باب الترغيب لهم.

٨- تعظيم قيمة العمل بديلاً للسؤال والاستجداء:

(إن المسألة لا تحل لغني، ولا لذي مرة سوي إلا لذي فقر مدقع، أو غرم مفظع، ومن سأل الناس ليثري به ماله، كان خموشاً في وجهه يوم القيامة، ورضفاً يأكله من جهنم، فمن شاء فليقل، ومن شاء فليستكثر).

قضية العمل، وأهميته في الحياة من القضايا التي ركز عليها الإسلام لعمارة الأرض، إذ إن مفهوم العبادة هو أشمل من الشعائر

Archive of SID
www.SID.ir

التعبدية، ونحن نقول: إن العبادة بالإضافة الى الشعائر التعبدية هي حركة الإنسان على الأرض إذا صحّت النية، والرسول(ص) قد حض على العمل وترك السؤال، وكذا الخلفاء من بعده، وعندما هاجر الصحابة من مكة الى المدينة قال عبد الرحمن بن عوف دلوني على السوق.

لو سألنا سؤالاً بريئاً ـ هل كان يمكن أن تقوم حضارة بالمفهوم الشامل لمعناها ـ لو أن المسلمين تركوا العمل ولزموا المساجد فقط ـ الجواب لا، فالطبيب والمهندس والبناء والزارع والصانع والتاجر وغيرهم كلهم أركان للحضارة، وكلهم مأجورون إن صحت النية وبهم تقام الحضارة وعمارة الأرض. إن الله هو الذي خلقنا ومهد لنا الأرض، وجعل الكون مسخراً لمعيشتنا وقدر في الأرض أقواتها. وطلب منا أن نكشف ما في هذا الكون بالعمل، وما تقدمت الدول الأخرى التي فاقت العالم الإسلامي مادياً إلا بالعمل.

إن السؤال والدّين سواء كان من أفراد أو جماعات أو من دول هو إشكالية كبيرة، وإن شروط صناديق النقد الدولية على الأمم الإسلامية قاسية وذات بعدين بُعد اقتصادي مادي وبُعد اجتماعي وسياسي، ويؤدي في المحصلة النهائية الى إشكاليات كبيرة لدى الدول

والعمل هو السبيل لتفادي ذلك. وهناك قضية أخرى يطول الشرح فيها ولكنها من الأهمية بمكان وهي قضية الربا، إن الربا هو تقطيع لأواصر الإنسانية في المجتمع وتأصيل لقواعد العداوة بين أفراد الأمة وسيطرة على منافذ القلب ومشاعر الرحمة، وقد كان العرب في الجاهلية يكون للرجل حق لأجل فإذا جاء الأجل قال أتقضي أم تربي.

إن تحريم الربا سمو بالإنسان الى مستوى الإنسانية ورفع للبشرية الى عالم تموت فيه دوافع البغضاء والشحناء وتعمه أحاسيس المحبة وتشده أواصر الأخوة والتضامن وقد جاء النص القرآني جازماً في هذا المجال: [الَّذينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ منَ الْمَسّ ذَلكَ بأَنَّهُمْ قَالُواْ إنَّمَا الْبَيْعُ مثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا...] (١١٧).

إنها حرب واسعة المدى متعددة الأشكال والأنواع جاء في خطبة الوداع (ألا إن ربا الجاهلية موضوع كله وإن أول ربا أبتدي به ربا العباس بن عبدالمطلب).

إن إعادة تأكيد حرمة الربا في هذا اليوم العظيم ليعلم الناس أن أمور المال والحياة المالية يجب أن تكون بمنجاة من الاستغلال والتحكم بالضعفاء.

Archive of SID
www.SID.ir

إن الربا اليوم هو جزء من خراب العالم اقتصادياً ولو بدا الأمر غير ذلك، وإن القيمة الحضارية للإسلام هو أنه جعل التجارة الحلال والكسب الحلال بديلاً عن الربا وذلك ممكن في العالم الإسلامي لو أراد المسلمون ذلك، وكثير من المسلمين الآن يحاولون إنشاء المصارف والبنوك والمؤسسات ذات البعد الإسلامي والتي تقوم على أساس غير ربوي وقد نجحت، حتى في الغرب إنهم يقدمون الآن مثل هذا اللون من المعاملات لما رأوا فيه من أهمية اقتصادية بحتة خارج إطار التحليل والتحريم.

إن دورة الاقتصاد دورة متكاملة من عمل واحتراف وإنجاز ومعاملات وكسب وتجارة وقيمة حضارية من قيم حجة الوداع أنها ركزت على هذا الجانب.

في إطار بحثنا عن القيم الحضارية في حجة الوداع نرى أنها تناولت قيماً كبرى كأركان للحضارة:

تناولت قيمة الأمة ووحدتها، وقيمة الحرمات، وقيمة حقوق الإنسان، والقيمة الاجتماعية، والقيمة الاقتصادية، والقيمة التربوية، وقيمة البلاغ، والقيم السلوكية، وقيم الأمانة، والعدل، وقيمة الأخوة والمساواة، والنصيحة، وطلب العلم، وتأكيد منهج العبادة، والوسطية، والبعد عن الغلو،

ومخالفة الجاهلية، وكلها قيم حضارية نحن بحاجة إليها في عصرنا الحالي.

كثيرة هي الخطب والتقارير التي نستمع إليها في حياتنا، وتبقى خطبة الوداع من فم المصطفى الأروع والأعمق، إن يوم عرفة هو يوم تروية روحية فردية والأجمل أن يكون يوم توبة سياسية واقتصادية واجتماعية وقيمية، إن خطبة الوداع ميزان تزن به الأمة خطاباتها حتى تكون على رسالة النبي(ص).

أيها العلماء الأجلاء، يا ملح البلد، يا من بكم تزدان الحياة، وتنقّى، يا من بهممكم، تصل الخيول الى نهايتها سباقاً نحو الهدف المنشود، حمل الرسالة، وتأديتها للتائهين في الأرض شعوباً وأفراداً، نحن الآن أمام تحدّ لا يفرّق بين أرض وأرض، وشعار يحمل اسم الإسلام، عودة الى القيم الحضارية في الإسلام، والى ربط المسلمين مع كلام نبيهم، والى إيصال هذه الرسالة إلى العالم واحدة من الأولويات التي بها نحيا وعليها نموت وعليها نلقى الله إن شاء الله مؤمنين موحدين.

الهوامش:

١- المائدة/ ٣ .
٢- و ٣- و ٤- .

Archive of SID
www.SID.ir

٥- الأحزاب/ ٦٢ .
٦- الإسراء/ ٧٧ .
٧- الإسراء/ ٣٦ .
٨- المائدة/ ٧٥ .
٩- البقرة/ ١٢٠.
١٠ - و ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥.
١٦ - المائدة/ ٣.
١٧- و ١٨ و١٩ و ٢٠ و٢١ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٣ و٣٤ و٣٥، فهارس المصادر والمراجع والحواشي موجودة لدى إدارة المجلة علماً بأن الموضوع مشارك في مؤتمر الحج لموسم ١٤٢٨ المنعقد في مكة المكرمة.
٣٦ - الحجرات/ ١٣ .
٣٧- و٣٨ و٣٩ و٤٠ و٤١ و٤٢ و٤٣ و٤٤ و٤٥ و٤٦ و٤٧ و٤٨ و٤٩ و٥٠ و٥١ و٥٢ و٥٣ و٥٤ و٥٥ و٥٦ و٥٧ و٥٨ و٥٩ و٦٠ و٦١ و٦٢ و٦٣ و٦٤ و٦٥ و٦٦ و٦٧ و٦٨ و٦٩ و٧٠ و٧١ و٧٢ و٧٣ و٧٤ و٧٥ و٧٦ و٧٧ و٧٨ و٧٩ و٨٠ و٨١ و٨٢ و٨٣، فهارس المصادر والمراجع والحواشي موجودة لدى إدارة المجلة علماً بأن الموضوع مشارك في مؤتمر الحج لموسم ١٤٢٨ المنعقد في مكة المكرمة .
٨٤ - الإسراء/ ٧٠ .
٨٥ - التين/ ٤ .
٨٦- البقرة/ ٣٤ .
٨٧- لقمان/ ٢٠.
٨٨- النساء/ ٩٣.
٨٩ - المائدة/ ٣٢ .
٩٠- النساء/ ٩٣.
٩١- المائدة/ ٧٧ .
٩٢-
٩٣- الإسراء/ ١٥.
٩٤ الرحمن/ ٩ .
٩٥- النحل/ ٥٨ - ٥٩.
٩٦- الزخرف/ ١٧.
٩٧- التكوير/ ٨ - ٩٩ .
٩٨- النساء/ ١٩ .

٩٩- النساء/ ١ .
١٠٠- الروم/ ٢١.
١٠١ - و١٠٢ و ١٠٣.
١٠٤- الإسراء/ ١١٠.
١٠٥- الفرقان/ ٦٧.
١٠٦ لقمان/ ١٩.
١٠٧ - الأنعام/ ١٥٢.
١٠٨- الحجرات/ ٩.
١٠٩- البقرة/ ١٤٣.
١١٠- القلم/ ٣٨.
١١١- العاديات/ ٥.
١١٢- و ١١٣ و١١٤ و١١٥.
١١٦- الحجرات/ ١٣.
١١٧- البقرة/ ٢٧٥.

Archive of SID

www.SID.ir